مرحلتان فى تاريخ مصر العام

لمصر تاريخ طويل يختلف المؤرخون فى تحديد بداءته ، فيجعلها بعضهم فى الألف الخامسة قبل الميلاد ويجعلها بعضهم الآخر فى الألف الرابعة وفى القرن الثالث والثلاثين بالذات ؛ وتميل كثرتهم الآن إلى أن تعتمد التاريخ الأخير . ومع ذلك فمن المسلم به من الجميع أن قيام الأسرة الأولى وظهور الكتابة وبداءة التاريخ المكتوب لا تمثل أول التاريخ فى مصر ، وإنما هى نهاية لعهد طويل من التطور أرسيت خلاله أسس الحياة المادية والاجتماعية فى مصر ، واتخذت تلك الحياة مقوماتها ومظاهرها التى حفظت عليها طابعها المصرى خلال الأعصر اللاحقة . وقد يكون من الحق علينا الآن أن نتحدث عن فجر المدنية المستقرة فى مصر بدلا من أن نتحدث عن أول التاريخ المكتوب . فالكتابة التى يصطلح الناس على أن يبدأ التاريخ بظهورها لم تكن إلا عرضاً أضاف الى الحياة ولكنه لم يغير من أسسها ولم يحوّر من مقوماتها . بل إن الحياة المادية فى العهد الفرعونى الذى عرف المصريون فيه كيف يسجلون تاريخهم لم تكن فى أصولها وأسبابها وطرائقها وغاياتها إلا استمراراً لحياة شعب مصر الذى استقر فى الوادى منذ عرف الناس الزراعة وفلاحة الأرض واستئناس الحيوان ورعيه ، أى منذ العصر الحجرى الحديث . كذلك لم تكن حياة المصريين العقلية والروحية ونزعاتهم فى الذوق والتفكير إلا استمراراً وتجديداً لما كان من حياة أسلافهم فى عهد ما قبل الأسرات . بل إن اتصالات المصريين بالخارج وتبادلهم ألوان الثقافة والفكر مع غيرهم فى الشرق والغرب والجنوب والشمال قد بدأت كلها فى أدوار مختلفة قبل أن يبدأ التاريخ المكتوب. وإذا نحن نظرنا إلى مصر عند قيام الأسرة الأولى فاننا نجد أن المجتمع فيها كان مكتمل الحياة والتطور فى كثير من الوجوه . فالأسس الاقتصادية والمادية قد بلغت حدًّا كبيراً من الاستقرار والتعقيد ؛ وحياة الناس ومصالحهم

قد ترابطت وتشابكت ، فجمعت بين تخصص الحرف وتكاملها . والنظام الاجتماعى قد تطور فشمل طبقات السكان ، كما اتسع حتى شمل الوطن كله ؛ فهو قد بلغ غايتـه ، أو كاد يبلغها ، فى العمق والاتساع . والحياة الاجتماعية والدينية للمصريين كانت قد تجاوزت حد الحس والمحسوسات إلى عالم المعنى والمعنويات وما يتصل بها من ثقافة الروح والوجدان . وكذلك الحياة الفنية والثقافية العامة لأبناء وادى النيل الأدنى قد بلغت غاية رفيعة مكنت للفن وثقافة الذوق والنفس من أن تكون جميعاً فى خدمة الروح والدين . بل كذلك الحياة الادارية والسياسية للمصريين قد بلغت حدا استطاع به الفرد أن يلائم بين العصبية الاقليمية وروح الوحدة القومية ، وذلك منتهى ما ترمى إليه الحياة فى أمة من الأمم . والمصريون جميعاً قد صار لهم طابع عام مميز ، جعلهم يحسون كيانهم الخاص الذى يفرق بينهم وبين غيرهم من شعوب الشرق القديم . لذلك كله كان من الحق علينا ألا نقف عند ما اصطلح المؤرخون على أن يسموه أول التاريخ المكتوب ؛ بل نرجع للوراء حتى فجر الحياة المستقرة المتحضرة فى مصر ، أى إلى أواخر الألف السادسة قبل الميلاد . وإذا نحن فعلنا ذلك فاننا نجد أن تاريخ شعب مصر يمتد إلى نحو سبعة آلاف من السنين .

وهذا التاريخ الطويل يمكن أن نقسمه إلى مرحلتين كبيرتين . ونحن إذ نفعل ذلك نتجاوز عن كثير من التفاصيل التاريخية التى يعنى بها المؤرخون أشد العناية أحياناً ، ولكنها مع ذلك قد تطغى على المعالم الكبرى فلا تسمح لغير المؤرخ أن يخرج بصورة واضحة من الاتجاهات الكبرى فى تاريخ مصر . ومع ذلك فنحن سنعالج الموضوع من وجهة نظر ما نسميه بالجغرافيا التاريخية ؛ وهى تلك التى تدرس الصلة المتطورة بين الشعب والبيئة التى يعيش فيها ، والعلاقة الدائمة بين الحوادث التاريخية الجارية والظروف الطبيعية التى تساعد على تكييف تلك الحوادث .

والناظر إلى تاريخ مصر العام يجد أن شعب مصر قد تأثر فى حياته وتاريخه بعوامل كثيرة : أولها ظروف البيئة المحلية ، ومنها النيل والتربة والمناخ وموارد الطبيعة فى أشكالها وصورها المتعددة . ولولا هذه البيئة الغنية السخية ، والتى يتجدد غناها وتتعدد مظاهر سخائها فى كل عام ، ما استطاع

مجتمع مصر أن يحفظ على نفسه حياته المزدهرة خلال أعصر التاريخ الطويل. بل إن البيئة المصرية بصفاتها التى يدرسها الجغرافيون إنما هى إلى حد كبير، سر ما امتازت به حضارة مصر من القدم والازدهار .

وعامل جغرافى آخر هو موقع مصر بالنسبة للبلدان المجاورة فى الشرق القريب وشرق البحر المتوسط وفى شمال إفريقية وشرقها . وقد بدأت اتصالات مصر بتلك البلدان جميعاً منذ أقدم العصور ؛ بل منذ بداءة عهد المعدن على وجه التحديد . فكانت مصر على اتصال بالشرق والغرب والجنوب والشمال . وقد أخذت عن تلك الأقطار جميعاً كما أعطتها من عناصر المدنية ومعالم الثقافة . ومع ذلك فقد امتازت صلات مصر بالعالم المجاور بأنها لم تكن صلات طغيان ، لا من جانب مصر ولا من جانب ذلك العالم المجاور . والدليل على ذلك أن مصر حين توسعت كان توسعها قائماً على أساس الاحتكاك وتبادل المنفعة ؛ فلم تحاول مصر أن تفرض نظم حياتها ولا حتى معالم دينها وثقافتها الدينية أو اللغوية على غيرها من البلدان ؛ وإن كانت أثرت فيها كلها وتأثرت بها . وكذلك الحال فيما أصاب مصر من الغزوات التى أتت من بعض هذه البلاد المجاورة ؛ فان تلك الغزوات لم تقطع على أرض النيل سبيل الحياة ، ولم تطمس معالم المدنية فى مصر بالذات ، بل لم تغير اتجاه التاريخ العام فيها تغييراً يمس أسس الحياة ومقوماتها الأولية ، كما حدث فى بعض البلدان الأخرى ذات المدنية العريقة ، والتى جاءتها غزوات من الخارج فى بعض العهود فدكت معالم تاريخها دكا ، كما حدث فى بلد كالعراق القديم ، بل كما حدث فى حالة بعض الامبراطوريات القديمة ومنها إمبراطورية روما على سبيل المثال . وغاية ما حدث فى حالة مصر أن الغزوات القديمة والحديثة التى أتتها من البلدان المجاورة لها مباشرة ، كشمال بلاد العرب أو جزر اليونان أو شواطئ ليبيا ، قد أضافت عناصر جديدة إلى الحياة المصرية ، والحياة الثقافية بنوع خاص ؛ وكانت هذه الاضافة مما نوّع الحياة فى مصر وزاد فى ألوانها زيادة جددت تاريخ الحضارة والثقافة فى مصر من جهة ، وجعلت من أرض مصر موطن حضانة وإنماء لبعض الألوان الأجنبية من الثقافة ، كالفكر الأغريقى والفكر العربى الاسلامى ، من جهة أخرى .

ثم عامل جغرافى ثالث أثر فى حياة مصر وتاريخها العام ، هو موقع مصر

بالنسبة للعالم كله ، عند ملتقى قارات ثلاث هى آسيا وإفريقية وأوربا ، وعند مفرق بحرين قديمين هما البحر الأبيض المتوسط الذى يمتد بمياهه إلى البحار الباردة فى الشمال ، والبحر الأحمر الذى يمتد حتى يتصل بالبحار الدفيئة ومناطقها فى الجنوب . وهذا الموقع الجغرافى كانت له قيمته الكبرى ؛ لأنه جعل من مصر قلب العالم القديم ، وجعلها فى طريق الاتصال بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب . ومع ذلك فان قيمة هذا العامل الجغرافى الحاسم فى تاريخ مصر لم تبدأ إلا بعد أن اتصلت أجزاء العالم بعضها ببعض ، وبعد أن عرف الشرق الغرب ، وعرف الشمال الجنوب . والشئ الذى لا يخلو من دلالة أن هذا التعارف الواسع المدى لم يحدث فى صورة مباشرة إلا فى عهد الاسكندر الأكبر الذى كانت حروبه ومخاطراته نقطة تحول خطير فى تاريخ العالم القديم . بل ربما كانت تلك الحروب أخطر ما حدث فى حياة الانسانية القديمة ، من حيث إنه عاصرها وترتب عليها احتكاك الغرب بقلب الشرق احتكاكاً عسكريا مباشراً ؛ أصاب الغربيين والشرقيين عموماً بصدمة عنيفة مباشرة ، هزت مشاعر الناس جميعاً فى ذلك العهد ، وتركت أثرها الدائم والعميق فى قصص الغرب والشرق على السواء ثم ترتب على ذلك التعارف الذى أطمع الغرب فى الشرق حيناً ، وأطمع الشرق فى الغرب حيناً آخر ؛ والذى أقل ما يقال فيه إنه جرى بالصلات والأسباب ، ومهد السبيل إلى أن تتصل التجارة والمواصلات البرية والبحرية المباشرة بين مناطق العالم المختلفة ، مما ترتب عليه آخر الأمر أن برزت قيمة موقع مصر كحلقة اتصال بين الشرق والغرب .

قد لا نغالى كثيراً إذا قلنا إن حروب الاسكندر وما تلاها من احتكاك وتعارف واتصال بين جهات العالم ، بل ما تلاها وترتب عليها من إبراز قيمة موقع مصر الجغرافى ، كانت السبب الأساسى والمباشر فيما نلحظ من اختلاف واضح بين مرحلتين كبيرتين من مراحل تاريخ مصر العام ؛ هما العهد الفرعونى وما سبقه من تطور طويل يمتد إلى العصر الحجرى الحديث ، ثم العهد اللاحق لغزوات الاسكندر فى القرن الرابع قبل الميلاد ، والذى يمتد خلال تاريخنا الاغريقى الرومانى والعربى الاسلامى ، بل يمتد إلى وقتنا الحاضر. ففى المرحلة الأولى كانت مصر سيدة تاريخها ؛ لم تتأثر فى حياتها إلا بالعوامل

الجغرافية المحلية وظروف البيئة التى تجدد الحياة والتاريخ ، وإلا بظروف موقعها الجغرافى من حيث اتصالها بالعالم المجاور لها مباشرة ؛ فتطغى عليه وتغزوه فى بعض الأحيان كما حدث فى عهود توسع الامبراطورية المصرية الحديثة إلى بلاد الشام ؛ أو يطغى عليها ويغزوها أحياناً ، ويقطع حياتها السياسية القومية خلال فترة قد تقصر أو تطول . أما فى المرحلة الثانية ، أى بعد عهد الاسكندر الأكبر ، فقد تغيرت الحال ، وبرز إلى الوجود ذلك العامل الجغرافى الثالث . وهو موقع مصر فى طريق المواصلات العالمية . وهذا العامل الثالث أدخل فى حساب التاريخ المصرى قوة العالم كله ، وربط تاريخ مصر وحياتها بظهور فكرة « العالمية » ، وبالقوى المختلفة التى تسعى إلى السيطرة على اتصالات الشرق والغرب ، والتى قد يكون مصدر بعضها قريباً من مصر كما حدث أيام الامبراطورية الرومانية وإمبراطورية العرب ؛ وقد يكون بعضها بعيداً عن مصر كما حدث أيام الحملة الفرنسية وأيام الامبراطورية البريطانية وفى هذا العهد الذى نعيش فيه أو الذى نحاول جاهدين أن نتخلص من أعقابه .

لم يكن ذلك الاختلاف الظاهر الكبير بين هاتين المرحلتين الكبيرتين من تاريخ مصر العام نتيجة مصادفة أو محض اتفاق. بل إنه لم يكن مترتباً على ضعف فى الحياة المصرية أو انحلال فى تكوين شعب مصر ، كما كان يقال إلى عهد قريب . فأرض مصر هى هى الآن كما كانت أيام قدماء المصريين ، وخصبها فى العهد الرومانى أو العربى أو فى العهد الحديث لا يقل كثيراً عن خصبها أيام قدماء المصريين . بل نستطيع أن نقول إن استغلال الأرض فى مصر فى بعض الأعصر اللاحقة بل فى العصر الحديث الذى أدخل فيه الرى الدائم والمحصولات الحديثة إنما هو فى الحقيقة أعلى مرتبة من استغلال تربة مصر ومواردها الزراعية المحلية أيام قدماء المصريين ؛ سواء أكان ذلك من ناحية غلة الأرض أم من ناحية تنوع المحاصيل . كذلك الحال فى شعب مصر ، فقد أضيفت إليه فى العهود الاغريقية والعربية والحديثة عناصر جديدة من الخارج ، جددت دماءه وأضافت إلى تنوع المواهب والملكات فيه ؛ فهى لم تضعفه ولم تنته إلى شئ من الانحلال الذى قد يتحدث عنه بعض الكاتبين . فشعب مصر فى تكوينه الحالى لا يقل قدرة ولا استعداداً عن شعبها أيام الفراعنة ، بل إنه قد يكون أقوى فى تكوينه الحديث من بعض الوجوه .

ولكن الذى حدث فى بعض العهود الحديثة هو أن القوى العالمية أصبحت من الضخامة وشدة البأس بحيث لا تستطيع مصر أن تناظرها بقوتها المحلية . ولذلك فان عامل الموقع الجغرافى العالمى أصبح أبعد تأثيراً فى توجيه تاريخنا العام من عامل القوة المحلية المصرية . وبذلك أفلت زمام التاريخ من مصر ، ووقع فى يد أجنبية تسعى إليها وتستغل موقعها وتوجهها فيما ييسر اتصال العالم عن طريق ذلك الموقع ، دون أن تفيد مصر من ذلك الاتصال غير بعض الفائدة العارضة .

ولكننا نخطئ إذ نتصور أن هذا العامل المتصل بموقع مصر الجغرافى كان العامل الوحيد أو الغالب على الدوام فى تاريخ مصر منذ عهد الأسكندر . إذ الواقع أن حياة مصر وتاريخها فى هذه المرحلة كانا متأثرين بالعوامل الثلاثة التى أشرنا إليها : موارد البيئة المحلية ، والموقع الجغرافى المحلى ، والموقع الجغرافى العام . وفى كثير من الأحيان كانت تلك العوامل متداخلة ومتشابكة الأثر . ففى بعض العهود التى عرفت مصر فيها كيف تستغل مواردها المحلية وتوجهها وجهة النفع والخير ، ازدهرت فيها الحياة وزادت قوتها المحلية ، فأصبحت من القوة بحيث تسيطر على العالم المجاور أول الأمر ، ثم تتحكم فى المواصلات العالمية وتفيد من موقعها الجغرافى العام تبعاً لذلك . ومثل هذا حدث أيام البطالمة ؛ وهم قد توسعوا فى استصلاح الأرض وزراعتها وتنويع محصولاتها وغلاتها ، كما توسعوا فى تجارة مصر الخارجية وسيطروا على طرق البحرين الأبيض والأحمر ؛ وعرفت مصر إذ ذاك وبعد ذاك كيف تفيد من موقعها الجغرافى فى التجارة العالمية ، حتى أصبحت مركز الاتصال بين الشرق والغرب ، لا فى التجارة وحدها ، بل كذلك فى الفكر والثقافة ؛ فورثت مجد الاغريق وثقافتهم ، وصارت الاسكندرية بحق منار العلم والمعرفة فى العالم القديم . كذلك حدث مثل هذا فى بعض الأعهد العربية ؛ فاستغل صلاح الدين مثلا موارد مصر وموقعها الجغرافى ، فتوسع فى الأقطار المجاورة من قاعدته الغنية القوية . كما استطاعت مصر أيام المماليك أن تستغل موقعها الجغرافى وأن تفيد منه بحيث أصبحت سيدة التجارة بين الشرق والغرب . وتجددت مثل هذه الحال أو كادت تتجدد فى عهد محمد على ؛ فهو قد بدأ باستغلال موارد البيئة المحلية وتجديد ثروة مصر فى الزراعة والصناعة والتجارة ، وحاولت

مصر فى وقت من الأوقات أن تسيطر على طريق الشرق والغرب ؛ ولكنها —مع الأسف— فقدت بالتدريج قوتها المحلية ، بعد أن تألب عليها العالم الخارجى وقص أجنحتها ، واضطرها إلى أن تنطوى على نفسها ، بعد أن كان محمد على قد اتخذ منها قاعدة سعى منها إلى الأقطار المجاورة . وهكذا انتهى العهد الحديث إلى أن ضعفت مصر بالنسبة للقوى العالمية الخارجية ؛ فطغى العامل الثالث على أثر العاملين الأولين .

بل هكذا نستطيع أن نستخلص أن تاريخ مصر إذا نظر إليه فى جملته ، فاننا نجد أن المرحلة الفرعونية امتازت بأن تاريخ مصر وازدهارها وقوتها كانت متوقفة إلى حد كبير على حسن استغلال المصريين لظروف بيئتهم المحلية ، كما كانت متوقفة على مبلغ توفيقهم فى الاستجابة لظروف تلك البيئة ودوافعها الظاهرة والخفية ؛ وهى بيئة تستلزم ، كما رأينا فى كثير من أحاديثنا السابقة ، تماسك المجتمع ووحدته فى دفع خطر الفيضان المشترك واستدرار منفعة الرى المشترك أيضاً ؛ بل هى بيئة تستدعى العمل الدائب المنظم والتضافر والتكافل بين فئات المجتمع . ولذلك فانه حتى فى العهد الفرعونى كان معيار تقدم المجتمع وازدهار الحياة والمدنية مرتبطاً بمبلغ استمساك المصريين بما تقتضيه بيئتهم من الوحدة والنظام والعمل الدائب . ففى الأدوار التى استمسك المصريون فيها بوحدتهم واستغلال موارد بيئتهم فى داخل أرض الوادى وفى الصحارى المجاورة ؛ وكذلك فى الأدوار التى عرف المصريون كيف يفيدون من موقعهم الجغرافى المحلى ، وكيف يوجهون صلاتهم بالعالم الخارجى وجهة الخير والمنفعة ... فى مثل هذه الأدوار ازدهرت حياة مصر واشتد بأسها وامتد سلطانها ونفوذها ؛ كما حدث فى بعض أطوار التاريخ الفرعونى المعروف . وفى الفترات التى ضعف فيها المجتمع وأهمل فلاحة الأرض ، وأعرض عن الاستمساك بالوحدة الطبيعية الشاملة التى تقتضيها ظروف البيئة ، اضمحلت الحضارة والمجتمع وساد الاقطاع وتنابذت الأقاليم ، فضعفت مصر وأطمع ذلك فيها الغزاة القريبين ، فطغوا عليها ، كما حدث فى الفترة بين الدولة القديمة والوسطى أو فى فترة غزوة الهكسوس .

فأما بعد عهد الاسكندر وإلى عهدنا الحديث فقد تعقد تاريخ مصر ، وظهر فيه العامل الثالث ؛ وهو عامل قد لا تكون لمصر فيه يد ، ولكنه

زاد فى التزاماتها نحو نفسها من جهة ، ونحو العالم من جهة أخرى . وقد حاولت مصر فى كثير من عهودها أن تلائم بين ما تقتضيه مصلحتها الخاصة وبين ما يفرضه عليها موقعها الجغرافى فى وسط العالم . ولكنها لم تكن فى كل أدوارها من القوة بحيث تستطيع أن تحقق تلك الملاءمة على وجهها النافع السليم . ولذلك فهى قد تعثرت فى تاريخها أثناء هذه المرحلة اللاحقة ، ولم توفق إلا فى فترات قليلة منها . بل إن كبواتها فى بعض العهود اللاحقة ، كانت أبلغ أثراً مما حدث أثناء كبواتها فى العهد الفرعونى . فقديماً كانت مصر تضعف ؛ ولكن مفتاح النهضة كان بيدها هى دون غيرها . أما فى المرحلة اللاحقة لفتوح الأسكندر فان مصر لم تكن على الدوام سيدة نفسها ؛ حتى فى بعض الحالات التى حاولت فيها أن تخرج بنفسها من الظلمة إلى النور ومن الضعف إلى القوة ، لم يطاوعها العالم الخارجى إلى ذلك ، ولم تملك هى أن تتخذ لنفسها طريق النهضة ؛ لأن قوى أخرى أعظم منها أوصدت أمامها ذلك الطريق .

وعلى ذلك فقد ينفعنا فيما نحن بسبيله الآن من نهضة نحاول أن نخرج بها مما أصابنا به موقعنا الجغرافى من بلاء فى عهدنا الحديث أن نستعرض الحالة على وجهها الصحيح ، وأن نبصر أنفسنا بما قد يكون فينا من عيوب ، وبما قد يقوم من حولنا من قوى عالمية جبارة لا نناظرها ولا نملك دائما أن نوجهها وجهة الخير . فذلك كله أساسى إن نحن أردنا أن نعرف قدرنا كما هو فى عالمنا الحديث .

نحن أمة غنية الموارد سخية البيئه . قد حاولنا خلال هذه الأجيال الثلاثة أو الأربعة المنقضية ، أى منذ عهد محمد على ، أن نجدد مواردنا وطرائق استغلالها ؛ فأدخلنا الرى الدائم ، ونوعنا محاصيل الأرض وغلاتها ؛ وبذلك تضاعفت ثروتنا الزراعية . ومع ذلك فقد تضاعف عدد سكاننا بما يفوق تضاعف الموارد . ولذلك فان غنانا فى الوقت الحاضر ظاهريا أكثر منه فعليا . بل نحن قد نكون فى فقر نسبى إذا قارنا حالنا الآن بما كانت عليه أيام قدماء المصريين ؛ خصوصاً إذا راعينا أن اتجاه اقتصادنا القوى فى العهد الحديث قد سار نحو التوسع الزراعى ولم يلتفت القائمون بأمره نحو استغلال الثروة المعدنية والصناعية التفاتاً جديا ، إلا فى الجيل الأخير . فضلا عن أننا لم ننفرد بهذه

الناحية الأخيرة ، وإنما شاركتنا فيها عناصر ورءوس أموال أجنبية ؛ وذلك كله لم يكن له وجود أيام قدماء المصريين . كذلك نحن شعب قد تكاثرت فيه الدماء وتنوعت بين أفراده الصفات والملكات ؛ فنحن من حيث الاستعداد قد لا نقل عن غيرنا . ومع ذلك فنحن شعب قد تكاثرت عليه المشكلات الاجتماعية والتعليمية والصحية ، وهى مشكلات أتى بها العهد الحديث ، ولم يكن لبعضها وجود فى بعض أعصرنا الخالية ؛ وهى إلى ذلك تضيف حملا ثقيلا ينوء به الشعب وينفق فى سبيل معالجته جهداً قد كان يمكن أن ينفق فى نحو آخر يرتفع بالحياة فوق مستواها الحالى . كذلك لمصر فى الوقت الحاضر موقع جغرافى وارتباطات قوية بالبلدان المجاورة ؛ ولكنها مع ذلك لا تستطيع — أو هى لم تكن لتستطيع حتى هذه السنوات الأخيرة — أن توطد صلاتها بهذا العالم المجاور إلى الحد الذى تفيد منه وتستفيد ، وتنفع وتنتفع . وهى حتى فى جنوب الوادى لا تملك أن تساير طبيعة الأشياء فتتم وحدتها وتستكمل كيانها فى الحدود التى رسمتها الطبيعة لوادى النيل . ثم إن لمصر موقعاً جغرافيا عالميا فريداً ، ولكنها من الضعف والارتباك السياسى بحيث لا تستطيع أن تتحكم فى موقعها بنفسها ، ولا أن تكون سيدة الاتصال بين الشرق والغرب كما كانت فى بعض أعصرها الماضية . وإنما هناك قوى عالمية جبارة لا تملك مصر إلا أن تعترف بوجودها ، وإلا أن تحاول أن تتخلص من ظلها الثقيل بقدر الامكان .

حالنا وحال العالم اليوم إذن غير حالنا وحال العالم فى بعض أعصر تاريخنا القديم . وخير لنا إن نحن أردنا أن نستبين الطريق لهذه الأمة الناهضة فيما هى مقبلة عليه من أيام ... خير لنا أن ننظر إلى الماضى نظرة تجاوز المظاهر والسطحيات إلى الأسس والمقومات فى حياة هذا الشعب وتاريخه الحافل الطويل . ونحن إن فعلنا ذلك فسنرى أن ظروف البيئة والموقع الجغرافى ، وكذلك جهاد هذا الشعب فى استغلال تلك الظروف ، قد كان لها جميعاً أثرها الكبير فى تحديد الاتجاهات الكبرى فى تاريخنا العام . وسنرى بصفة خاصة أن عاملا خطيراً ، هو موقعنا الجغرافى العالمى ، لم تكن قيمته قد تجلت بعدُ فى أيام أجدادنا الفراعنة الأمجاد ؛ وأن هذا العامل إنما ظهرت آثاره كاملة فى المرحلة اللاحقة لفتوح الاسكندر ، عندما غدا ذلك الموقع سلاحاً ذا حدين . ففى الأدوار التى عرفت مصر فيها كيف تستغل مواردها المحلية فى البيئة النيلية

والصحراوية ، وكيف توجه مصادر القوة فى تكويننا الشعبى المنوع السلالة والمواهب والملكات ، وكيف تفيد من موقعها الجغرافى المحلى أو الاقليمى فى توطيد صلاتها بجيرانها فى الشرق القريب وتوجيه تلك الصلات وجهة الخير والفائدة التى تعم الجميع ... فى مثل هذه الأدوار استمسكت مصر بأسباب وحدتها وقوتها ، فتزعمت الشرق القريب فى التجارة والثقافة ، وصارت بحق سيدة تاريخها والمشرفة على مواصلات العالم . وفى الأدوار التى أهملت فيها مصر مواردها المحلية فى البيئة الطبيعية ومكامن القوة فى تكوينها الشعبى ، ولم تعرف كيف تفيد من موقعها الذى يربط بينها وبين أمم الشرق القريب بأوثق الأسباب ... فى هذه الأدوار جاء العامل الجغرافى الثالث ، وهو موقعها العالمى ، وبالاً عليها ، فلم تعرف كيف تفيد منه ، بل طغى عليها العالم الخارجى ، وضاعت مكانتها فى العالم ، وغدت طريقاً وممرا لقوى عالمية جبارة ليس لمصر الضعيفة إلى مناظرتها أو إلى قهرها من سبيل .

أيكون لنا فى مستقبلنا من القوة ما يفتح أمامنا السبيل إلى أن نوجه موقعنا الجغرافى فى وسط العالم وجهة الخير ، فنستعيد بعض ما كان لنا من ماض فى بعض أدوار التاريخ ؟ لعل الشرط الأول لذلك كله أن نعرف قدر بلادنا وقدر أنفسنا ، بل قدر هذا الموقع الفريد الذى سبقنا إلى إدراك قيمته الخطيرة غيرنا من الناس !

سليمان حزين